الحلاج ٠ لا يعرف لهُ دواء شافٍ ولا سبيل الى التخلص منهُ الاَّ بالوقاية وهي تقوم بعزل المصابين وحرق البيوت الملوَّثة

والحكومة السودانية مهتمة بهِ اشد الاهتمام ففتحت اعتماداً قدرهُ ٢٠٠٠ جنيه وعينت لجنة من الاطباء واتفدتها الى جهات النيل الازرق لدرس الداء ومقاومتهِ ومعظم الفضل في ذلك راجع الى اطباء الجيش المصري والى الدكتور بلفور من مدرسة غوردون ولهذا الاخير شهرة واسعة في عالم الطب وقد استعنت كثيراً بتقريرهِ في كتابة هذه السطور

امين المعلوف

الكوليرا والصحة في مكة المكرَّمة

(تابع ما قبلهُ)

افرد المؤلف فصلاً وصف فيهِ الوباء الذي نشا في الحجاز سنة ١٨٩٣ وقال انهُ كان شديد الوطأة جدًّا بلغ عدد الوفيات بهِ في مكة وضواحيها ثلاثين الفاً وذلك بين مئتي الف من الحجاج ٠ ثم عدَّد الاسباب التي من رأيهِ لها التأثير الاعظم في زيادة عدد الاصابات والوفيات وهي ما يأتي ملخصاً

١ الازدحام ٠ تزدحم المساكن كثيراً في موسم الحج فالغرفة التي لا تسع ثلاثة اشخاص يقيم فيها خمسة عشر ويكاد الواحد منهم لا يجد موضعاً ينام فيهِ ٠ وهذه المساكن يستأجرها المطوفون ومن مصلحة الواحد منهم ان يكثر عندهُ عدد الحجاج ما امكن وهو سبب هذا الازدحام الكثير ولا يخفى على القارئ البصير الضرر الذي ينتج عن ذلك في اماكن قليلة يتجدد هواؤها فتضعف قوة الحجاج ومقاومتهم للامراض المعدية ولا سيما ان كثيرين منهم فقراء وظاعنون في السن فاذا حدثت بينهم اصابة بالكوليرا كان تعرُّض الباقين للعدوى شديداً ٠ وقد وجدت بالاختبار ان الوفيات في هذه الاماكن اكثر مما هي في غيرها

٢ الانحلال ٠ كنت اظن قبلاً ان الازدحام هو السبب الاعظم في كثرة الوفيات لكنني بعد ان راقبت سير هذا الداء في مني وجدت ان الانحلال الذي يتطرق الى جثث الحرفان التي لم تجد هناك هو اهم الاسباب التي ينتج عنها كثرة الوفيات ٠ ولا يخفى ان كل واحد من الحجاج يضحي بشاة واحدة او اكثر فيبلغ عدد الضحايا في بعض السنين ٣٠٠٠٠٠ تطرح بعضها في حفر تصنع لذلك ويترك اكثرها معرضاً للشمس والهواء فيتطرق اليهِ

الاغلال من اول يوم من ايام العيد ويبلغ اشدّه في اليوم الثالث . وقد وجدت بالاختبار ان الماء يزداد فكاً بازدياد الاغلال ويبقى على شدته بين الحجاج الى ما بعد انصرافهم من منى فان العفونة المنبعثة من الجثث تؤثر في قوام فتضعف مقاومتهم للامراض ولهذه الاسباب يبقى الماء شديداً بينهم الى ما بعد ايام العيد

٣ المساكن . يقيم بعض الحجاج في كهوف لا يتجدد هواؤها الاّ قليلاً ولا تدخلها الشمس مطلقاً والاصابات والوفيات بين هؤلاء كثيرة جدّاً

٤ التغذية . لا ريب ان سوء التغذية في بعض الحجاج يجعلهم اكثر تعرضاً لاعدوى من غيرهم وكثيرون منهم فقراء يعيشون بما يجود به الموسرون منهم وينتدي بعضهم بما كل عسرة الهضم جدّاً وبعضها فاسد وكل ذلك يؤثر في حالة القناة الهضمية فيجعلها اقل مقاومة للعدوى

٥ انتشار البالشوس . وهو من الاسباب التي لها اهمية كبرى في تفشي الداء وكثرة العدوى ويما يساعد على ذلك ازدحام الشوارع والمساكن

٦ مياه الشرب . الماء في مكة غزير وفيه كل الخواص التي تجعله صالحاً للشرب ويجرّ الى المدينة من مكان يبعد عنها نحو ٣٠ كيلومتراً في قناة مبنية بالحجر . وغير هذه القناة سبع عرفات على بعد ٥٠٠ متر عن موقف الحجاج وهناك صهريجان كبيران يصب اليهما الماء بقناة تتفرع من القناة الكبرى ويملآن كل سنة قبل قدوم الحجاج . ثم تمرّ القناة في منى على مسافة كيلومترين من مكان نزول الحجاج وهناك ثلاثة صهاريج يأتيها الماء من القناة الكبرى . وفي منى صهاريج اخرى في البيوت وهي ملك لاصحابها يملأونها من ماء المطر او ينقلون اليها الماء من القناة الكبرى على ظهور الجمال . وفي القناة الكبرى عيون كثيرة يشرب منها الاعراب وغيرهم

وتنقسم القناة عند وصولها الى المدينة الى فرعين يتوزع منهما الماء في جميع احياء المدينة وفي كل حيّ سبيل مؤلف من عدة احواض يصب الواحد منها في الآخر وما يفيض من الماء ينصرف الى بساتين خارج المدينة . وتحت كل سبيل صهريج يحفظ فيه الماء الى وقت الحاجة فيملأ السقاؤون قربهم منه ويبيعون الماء في البيوت . والاستقاء من هذه السبل مباح للصادر والوارد والبعض يسقون ثيابهم فيها . وماء مكة نقي صافٍ لكنه يتعكر حينما ينزل الحجاج عرفات ومنى ويستنتج من ذلك ان له علاقة بانتشار الوباء لكني وجدت الحقيقة خلاف ذلك فان الوفيات لا تزداد في عرفات ومكة في يوم وقفة العيد ولا في منى في اول يوم من

ايام العيد مع ان الماء يكون متكرراً في هذين اليومين . ولا يمكن ان تنسب قلة الوفيات في عرفات الى قصر مدة الحضانة في هذا الداء اذ لو صح ذلك لزادت في اول يوم من ايام العيد لكنها لا تزداد قبل اليوم الثاني حينما يشتد الاختلال في الجثث

اما مكة فلا يكاد يحدث فيها وفيات في يوم الوقفة واول يوم من ايام العيد ولعل سبب ذلك ان في سكانها بعض المناعة من هذا الداء لكن هذه المناعة لا تفيدهم كثيراً لو كان الماء الذي يشربونهُ ملوثًا بالباشلوس

وصهاريج الماء في منى مقفلة اقفالاً محكماً يجعل تلوثها بالداء صعباً جدًّا . وقد قلنا ان الوفيات في عرفات حيث الماء عكر اقل منها في منى حيث الماء صافٍ نقيّ ولو كان الماء هو السبب في انتشار الداء لكان الامر على الضد من ذلك

ثم ان تلوث الماء في مكة سهل جدًّا لكني لم ارَ ما يثبت ذلك مطلقاً فوارث الكوليرا ظهرت اولاً في احد الاحياء وانتشرت منهُ الى الاحياء التي تستقي من المياه التي تمر فيهِ فقلنا ان للماء علاقة بانتشار الداء لكنهُ لم يحصل شيء من هذا فالداء يظهر اعتباديًا في الاحياء السفلى او المتوسطة من المدينة حيث يزدحم الحجاج ولاسيما الفقراء منهم ويتبع الجماهير في سيرهم ولا يتخذ الطريق التي يسير فيها الماء ولا انكر ان الكوليرا يمكن ان تنتشر بواسطة الماء لكني لم ارَ ما يؤيّد ذلك في مكة فالماء فيها جارٍ لا يعيش فيهِ الباشلوس والصهاريج تفرغ وتنظف كل مدة فلا يمكن ان يقيم فيها مكروب الداء مدة طويلة

نظام المصلحة الطبية في مكة

قامت القيامة على الحكومة بسبب فتك الكوليرا سنة ١٨٩٣ واهتم السلطان السابق بذلك واصدر ارادتهُ باتخاذ الاحتياطات اللازمة لوقاية الحجاج وارسلت الاوامر تباعًا فقدّمتُ تقريراً الى ذوي الشأن اشرت فيهِ باتخاذ الاجراءات الآتية

اولاً . تعيين اربعة اطباء لمساعدة مفتش الصحة في مكة يقيمون فيها من اول رمضان الى اول محرم اي اربعة اشهر

ثانياً . انشاء صيدلية (اجزاخانة) في مكتب الصحة يكون فيها ثلاثة صيادلة احدهم مسئول والاثنان الباقيان يقيمان مدة اقامة الاطباء الاربعة

ثالثاً انشاء فصيلة من البوليس الصحي يكون فيها ثلاثة ضباط تعطى لهم قوة تنفيذية في ما يختص بالمصلحة الطبية

رابعاً . تعيين صرّاف وكاتبين

خامساً . انشاء مستشفى يسع خمسين سريراً وليه عدد من النقالات

سادساً . تعيين مبلغ ٧٨٤٠٠ قرش لتنظيف الطرق وكنسها

سابعاً . تعيين مبلغ ٢٠٠٠٠ قرش سنوياً تصرف في دفن فضلات الجثث التي يضحّى بها في منى

ثامناً . تعيين فصيلة من المرضين مؤلفة من ٣٠ نفراً

والغاية من هذا النظام منع الازدحام وحفظ الشوارع والمساكن التي يقيم فيها الحجاج في حالة حسنة ومنع الحجاج من الاقامة في الاماكن التي لا يدخلها الهواء ونور الشمس ومنع المآكل المضرة بالصحة ودفن الجثث ونقل المرضى الذين يصابون في الشوارع والبيوت وعزلهم والاعتناء بهم وتطهير البيوت الملوثة وحفظ الماء نقياً على قدر الامكان

فوافقت مصلحة الصحة على تقريري هذا بعد ان عدلتهُ قليلاً وصدرت الارادة السنية بتنفيذهِ فارسل اربعة اطباء وثلاثة صيادلة وثلاثة من ضباط البوليس الطبي وصرّاف وكاتبان وسبعة وثلاثون ممرّضاً وانشئ مستشفى يسع خمسين سريراً ثم زيد عليهِ الاطباء فبلغ ستة والاسرّة في المستشفى فصارت مئة

وافرد المؤلف فصلاً وصف فيهِ وباء سنة ١٨٩٥ والاجراءات التي اتخذت لمقاومتهِ قال كان الاطباء وغيرهم من رجال الصحة يفتشون منازل الحجاج يومياً ومنع بيع المآكل الفاسدة ونظفت الشوارع وطهرت الاماكن العفنة فيها بالكلس واقفلت الاحواض الصغيرة في سبيل الماء ووضع لها انابيب يشرب منها واوقف عليها الحفراء حتى لا يلوثها الناس . وكان الاطباء يعالجون الحجاج والاهالي ويصرفون لهم الادوية مجاناً وحمّلوا النقالات يجولون في في الشوارع لنقل المصابين الى المستشفى . واعتني بنوع خاص بدفن الموتى ولم يسمح بدفن احد ما لم تعلن مصلحة الصحة بذلك . اما امتعة المصابين فكانت تحرق قبل خروجهم من المستشفى ويصرف لهم بدلاً عنها بدون مقابل

ولم يخلُ الامر من مقاومة شديدة في تنفيذ هذه الاجراءات الاّ ان المرحوم عون الرفيق باشا امير مكة الاسبق كان خير مساعد لرجال الصحة فامر باحضار فضلة التطهير الى بيتهِ واستعملها في تطهير الغرفة التي كان جالساً فيها ومعه جماعة من اشراف المدينة واعيانها . ولما رأى الناس في الشارع ينظرون الى ذلك امر بنضح ثيابهِ والمكان الذي كان جالساً فيهِ فكان لعمل هذا احسن تأثير في الناظرين ولم تعد تحصل لنا مقاومة في اعمالنا الطبية

وجاءت هذه الاحتياطات الطبية بنتيجة حسنة جداً فكان عدد الوفيات في مكة

وضواحيها ٣٠٦ فقط وهو عدد لا يذكر بالنسبة الى وفيات سنة ١٨٩٣ . ولا ريب في ان الاجراءات الطبية هي السبب الاعظم في ذلك لا أنّ الوباء كان خفيفاً اذ لو صح هذا الفرض لكانت الوفيات قليلة بين الحجاج الذين سافروا بعد ذلك من مكة الى المدينة في ركب واحد مؤلف من ٤٠٠٠ حاج توفي خمسة آلاف على الطريق وفي المدينة المنوّرة اي اكثر من الثلث وكان قد بقي في مكة ٣٠٠٠٠ حاج فاخذت الوفيات بينهم تتناقص الى ان تلاشى الوباء قبل رجوع الركب المذكور

ولا بد ان اقول قبل الختام ان مكة في حاجة الى اصلاحات غير ما ذكرت . منها توسيع الشوارع وغرس الاشجار فيها وتشجيع الاهالي للبناء خارج المدينة فيخف الازدحام بذلك . ولا بد من اصلاح الماء ايضاً وجرّه بالانابيب وهذا الامر لا يتم دفعةً واحدة

اما رأيي في انتقال الماء مع الحجاج من المنهل فقد ذكرتهُ آنفاً واضيف الى ذلك ان الاصلاحات التي ادخلت في محجر جزيرة قمران في هذه السنوات الاخيرة تجعلنا نأمل اننا نصل الى نتيجة يمنع بها انتقال الماء الى مكة

بقي علينا امر سكة حديد الحجاز والخوف من انتقال الماء الى الشام بها فقد عينت الحكومة العثمانية لجنة مؤلفة من الدكتور كليو المندوب الانكليزي والمسيو بادل المندوب الالماني والدكتور ستا كولس المندوب الهولاندي وجميعهم من المجلس الصحي العالي في الاستانة ومن كاتب هذه السطور وذلك للبحث في نقطة تكون موافقة لبناء محجر على الخط الحجازي فقرّ الرأي على انتخاب محطة تبوك وهي تبعد ٦٩٣ كيلو متراً عن دمشق و ٢٣٣ كيلو متراً عن معان آخر محطة مأهولة وسيبنى محجرٌ كبير هناك

هذا ما رأينا تلخيصهُ من رسالة الدكتور قلسم بك عن الدين ففيها من دقة البحث ومن الآراء الصائبة ما يشهد لهُ بالخبرة وبعد النظر لاسيما وقد اقام في الحجاز وقمران سنوات عديدة فاذا قال شيئاً كان قولهُ عن خبرةٍ تامة . ويحسن بالحكومة العثمانية ان تسرع في اجراء الاصلاحات التي اشار بها ولاسيما الماء فهما قال حضرتهُ دفاعاً عن الماء فذلك لا ينفي احتمال تلوثهِ بعدوى الكوليرا كما فشت في القبائل النازلة حيث يكون مجرى الماء مكشوفاً ولاسيما اذا توفي بعض الحجاج بالكوليرا واخذ العرب ثيابهم وغسلوها في مجرى الماء . والصهاريج تحت السبل في احياء المدينة لا نعلم ماذا يمنع تلوثها وقد يكفي لتلويثها ان ينغمس فيها ابريق امسك به شخص مصاب بالكوليرا او مقيم مع شخص مصاب بها

ويحسن بالحكومة ان تنشئ معملاً بكتيريولوجيًّا في مكة كالمعمل الذي في الخرطوم وتعين له اطباء اختصاصيين . ولا نرى عدد المرضين والبوليس الصحي كافيًا لو تفشت الكوليرا هناك ولا عدد الاطباء والاسرة في المستشفى فانهُ اذا روقبت الحوادث الاولى وفرز المصابون كلهم وكان ماء الشرب نقيًّا امن انتشار الكوليرا دائمًا كما دلَّ الاختبار في مواسم الحج ببلاد الهند

ويحسن بنظارة الاوقاف المصرية ان تبني مستشفى في مكة لمعالجة الحجاج المصريين وغيرهم فعندها مال كافٍ لذلك وجدًا لو بُنيت منازل صالحة للسكن خارج مكة تقوم بنفقة بنائها اوقاف المسلمين وينزل فيها فقراء الحجاج ويكونون تحت ملاحظة الحكومة . كل هذه الامور حرية بالنظر والعناية

مدارس الحكومة

وهي خطبة للاستاذ وليم هول رئيس القسم التجاري في المدرسة الكلية الاميركية ببيروت القاها باللغة الانكليزية امام جماعة من الادباء والافاضل في الشوير بلبنان

ان اولياء الامور في هذه السلطنة العظمى قد شعروا بان ترقية البلاد لا تقوم باستثمار المواد الطبيعية فقط بل لا بد ايضًا من اطلاق القوى العقلية الكامنة في هذه الامة العظيمة . فتصدير خيرات البلاد كالمعادن والغلال الى الاسواق الخارجية من الامور التي تستحق الاهتمام الشديد لكن تثقيف عقول الشبيبة بالعلم والادب اهم من ذلك وسيكون لزعماء النهضة الحديثة في هذه البلاد الحظ الاوفر في فتح خزائن العلم فانها اعلى قيمة من دفائن الارض

بدأ التاريخ الحديث بامرين عظيمين ايقظا اوربا من غفلتها كما تشاهد اليوم في اليابان والهند والصين وهما فتح القسطنطينية واكتشاف اميركا فنتج عن الاول ان علماء اليونان تشتتوا في اوربا وبثوا فيها روح العلم . واتَّسع نطاق المكونة باكتشاف اميركا فكثر ميل الناس الى السفر طلبًا للكسب ورغبةً في الاكتشاف . واتَّفق ان عُرف فن الطباعة في ذلك العصر فكثرت الكتب واقبل الناس على مطالعتها وكان لا يقتنيها قبل ذلك الا القسيسون والرهبان . وانتشر العلم بين الناس فزادوا تفكيرًا وزادت احتياجاتهم بذلك فلجأوا الى الاختراع